أَثَرُ الابْتِسَامَةِ وَالأَخْلاَقِ الْحَسَنَةِ عَلَى الْمُجْتَمَعِ

أَيُّهَا الإِخْوَةُ: الابْتِسَامَةُ وَالْبِشْرُ هِيَ صِفَةُ وُجُوهِ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلِ الْجَنَّةِ الَّذِينَ قَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، بِقَوْلِهِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨]. (مُّسْفِرَةٌ) أَيْ: مُشْرِقَةٌ مُضِيئَةٌ، ثُمَّ قَالَ: ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٩] (ضَاحِكَةٌ) أَيْ: مِنَ السُّرُورِ بِمَا أَعْطَاهَا اللهُ مِنَ النَّعِيمِ وَالْكَرَامَةِ (مُسْتَبْشِرَةٌ) لِمَا تَرْجُو مِنَ الزِّيَادَةِ.

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ لِيَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ» [رواه مسلم].

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فِي حَدِيثٍ آخَرَ: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ» [رَوَاه الترمذي، والبزار، وصححه الألباني].

قَالَ صَاحِبُ الْمِرْقَاةِ: (تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ) أَيْ: عَلَى وَجْهِ الانْبِسَاطِ صَدَقَةٌ، أَيْ: إِحْسَانٌ إِلَيْهِ، أَوْ لَكَ، فِيهِ ثَوَابُ صَدَقَةٍ. [مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٦/٢٠٥].

قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: وَالْبَشَاشَةُ مَصْيَدَةُ الْمَوَدَّةِ، وَالْبِرُّ شَيْءٌ هَيِّنٌ، وَجْهٌ طَلِيقٌ، وَكَلاَمٌ لَيِّنٌ. وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الْعَالِمِ الَّذِي يُصَعِّر خَدَّهُ لِلنَّاسِ، كَأَنَّهُ مُعْرِضٌ عَنْهُمْ، وَعَلَى الْعَابِدِ الَّذِي يُعَبِّسُ وَجْهَهُ وَيُقَطِّب جَبِينَهُ، كَأَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ النَّاسِ، مُسْتَقْذِرٌ لَهُمْ، أَوْ غَضْبَانٌ عَلَيْهِمْ. قَالَ الْغَزَالِيُّ: وَلاَ يَعْلَمُ الْمِسْكِينُ أَنَّ الْوَرَعَ لَيْسَ فِي الْجَبْهَةِ حَتَّى يُقَطَّبَ، وَلاَ فِي الْوَجْهِ حَتَّى يُعَفَّرَ، وَلاَ فِي الْخَدِّ حَتَّى يُصَعَّرَ، وَلاَ فِي الظَّهْرِ حَتَّى يَنْحَنِيَ، وَلاَ فِي الذَّيْلِ حَتَّى يُضَمَّ، إِنَّمَا الْوَرَعُ فِي الْقَلْبِ. [فيض القدير: ٣/٢٢٦].

رَوَى هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ كَمَا فِي سُنَنِ الْبَيْهَقِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «مَكْتُوبٌ فِي الْحِكْمَةِ: لِيَكُنْ وَجْهُكَ بَسْطًا، وَكَلِمَتُكَ طَيِّبَةً، تَكُنْ أَحَبَّ إِلَى النَّاسِ مِنَ الَّذِي يُعْطِيهِمُ الْعَطَاءَ».

وَقَالَ الأَوْزَاعِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ– كَمَا فِي كِتَابِ إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ لِلإِمَامِ الْغَزَالِيِّ: كَرَامَةُ الضَّيْفِ: طَلاَقَةُ الْوَجْهِ، وَطِيبُ الْحَدِيثِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْمُنْذِرِيُّ كَمَا فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ أَنَّ الْبَشَاشَةَ هِيَ: طَلاَقَةُ الْوَجْهِ، مَعَ الْفَرَحِ، وَالتَّبَسُّمِ، وَحُسْنِ الإِقْبَالِ، وَاللُّطْفِ فِي الْمَسْأَلَةِ.

أَمَّا طَلاَقَةُ الْوَجْهِ: وَهُوَ إِشْرَاقُهُ حِينَ مُقَابَلَةِ الْخَلْقِ، وَهُوَ ضِدُّ الْعُبُوسِ.

وَقِيلَ: إِنَّ ثَمَّتَ فَرْقًا بَيْنَ الْبِشْرِ وَالْهَشَاشَةِ وَالْبَشَاشَةِ، فَالْبِشْرُ أَوَّلُ مَا يَظْهَرُ مِنَ السُّرُورِ بِلُقْيِ مَنْ يَلْقَاكَ، وَمِنْهُ الْبِشَارَةُ، وَهِيَ أَوَّلُ مَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنَ الْخَبَرِ السَّارِّ، فَإِذَا وَصَلَ إِلَيْكَ ثَانِيًا، لَمْ يُسَمَّ بِشَارَةً، وَلِهَذَا قَالَتِ الْفُقَهَاءُ: إِنَّ مَنْ قَالَ: مَنْ بَشَّرَنِي بِمَوْلُودٍ مِنْ عَبِيدِي فَهُوَ حُرٌّ. أَنَّهُ يُعْتِقُ أَوَّلَ مَنْ يُخْبِرُهُ بِذَلِكَ.

وَالْهَشَاشَةُ هِيَ الْخِفَّةُ لِلْمَعْرُوفِ، وَقَدْ هَشِشْتَ يَا هَذَا -بِكَسْرِ الشِّينِ- وَهُوَ مِنْ قَوْلِكَ: شَيْءٌ هَشٌّ: إِذَا كَانَ سَهْلَ التَّنَاوُلِ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ سَهْلَ الْعَطَاءِ، قِيلَ: هُوَ هَشٌّ بَيِّنُ الْهَشَاشَةِ.

وَالْبَشَاشَةُ: إِظْهَارُ السُّرُورِ بِمَنْ تَلْقَاهُ، وَسَوَاءً كَانَ أَوَّلاً أَوْ أَخِيرًا.

وَالاِبْتِسَامَةُ: هِيَ الْغَنِيمَةُ الْبَارِدَةُ لِمَنْ تَحَلَّى بِهَا إِخْلاَصًا للهِ، وَلَيْسَ تَصَنُّعًا، وَهِيَ جَوَازُ سَفَرٍ مَجَّانِيٌّ لِلْقُلُوبِ، وَهِيَ الْبَلْسَمُ لِكُلِّ النُّفُوسِ الْمُتْعَبَةِ، وَوَسِيلَةُ التَّوَاصُلِ الأَسْمَى عَلَى مُسْتَوَى الأَفْرَادِ وَالْمُجْتَمَعَاتِ؛ فَهِيَ لاَ تَحْتَاجُ إِلَى مُتَرْجِمٍ؛ فَهِيَ لُغَةٌ وَاضِحَةٌ يَفْهَمُهَا الْجَمِيعُ. قَالَ جَرِيرٌ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: «مَا حَجَبَنِي النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلاَ رَآنِي إِلاَّ تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي» [متفق عليه].

فَضَائِلُ الاِبْتِسَامَةِ وَالْبَشَاشَةِ وَطَلاَقَةِ الْوَجْهِ:

- سَبَبٌ فِي الْحُصُولِ عَلَى الأَجْرِ الْعَظِيمِ مِنَ اللهِ.
- طَلاَقَةُ الْوَجْهِ تُبَشِّرُ بِالْخَيْرِ، وَيُقْبِلُ عَلَى صَاحِبِهَا النَّاسُ، وَالْوَجْهُ الْعَبُوسُ سَبَبٌ لِنُفْرَةِ النَّاسِ، وَقَدْ قِيلَ: «حُسْنُ الْبِشْرِ اكْتِسَابُ الذِّكْرِ».
- الْهَشَاشَةُ وَطَلاَقَةُ الْوَجْهِ تُثْمِرُ الْمَحَبَّةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالتَّآلُفَ بَيْنَهُمْ.

مَوَانِعُ اكْتِسَابِ الْبَشَاشَةِ:

- مَرَضُ الْقَلْبِ، وَتَغَلْغُلُ الصِّفَاتِ الْقَبِيحَةِ فِيهِ مِنَ الْحَسَدِ وَالْغِلِّ وَالْحِقْدِ وَالْكِبْرِ، وَبُغْضِ النَّاسِ، وَكَرَاهِيَةِ الْخَيْرِ لَهُمْ، وَالَّتِي تَرْسُمُ الْجَهَامَةَ عَلَى وَجْهِ صَاحِبِهَا، وَتَجْعَلُ الْبَشَاشَةَ تُفَارِقُ مُحَيَّاهُ، وَلِذَلِكَ قَالَ رَسُولُنَا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ».
- عَدَمُ اتِّبَاعِ هَدْيِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَالَّذِي حَثَّ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةَ بِخُلُقِهِ وَقَوْلِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.
- عَدَمُ اسْتِشْعَارِ الأَجْرِ الْمُتَرَتِّبِ عَلَى التَّحَلِّي بِهَذِهِ الصِّفَةِ.

الْوَسَائِلُ الْمُعِينَةُ عَلَى اكْتِسَابِ الْبَشَاشَةِ:

- اسْتِشْعَارُ الأَجْرِ الَّذِي رَتَّبَهُ الشَّرْعُ عَلَى الْبَشَاشَةِ وَطَلاَقَةِ الْوَجْهِ؛ بَلِ الأَجْرِ عَلَى عُمُومِ حُسْنِ الْخُلُقِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣ – ٣٤].

قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ» [رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ» [رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وحسَّنَهُ الألبانيُّ].

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقًا» [رواه الترمذي، وحسنه الألباني].

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ شَيْءٍ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ» [رواه الترمذي، وصححه الألباني].

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَاتِ قَائِمِ اللَّيْلِ صَائِمِ النَّهَارِ» [رواه أبو داود، وصححه الألباني].

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجِوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ» [رواه أحمد، وصححه الألباني].

- اتِّبَاعُ هَدْيِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَالَّذِي كَانَتِ الْبَشَاشَةُ خُلُقَهُ، وَعَلَّمَهَا لِأُمَّتِهِ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.
- إِصْلَاحُ الْقَلْبِ بِتَقْوَى اللهِ تَعَالَى لِلتَّخَلُّصِ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ كَالْحَسَدِ وَالْحِقْدِ، الَّتِي تَجْعَلُ الْمَرْءَ يَمْقُتُ مَنْ حَوْلَهُ وَيَكْرَهُ لَهُمُ الْخَيْرَ، وَيُلَاقِيهِمْ بِجَهَامَةٍ وَوَجْهٍ عَبُوسٍ.
- التَّعَوُّدُ عَلَى رَسْمِ الِابْتِسَامَةِ عَلَى الْوَجْهِ، وَمُحَاوَلَةُ أَنْ تَكُونَ سِمَةً دَائِمَةً لِلشَّخْصِ.

الْآثَارُ الْمُتَرَتِّبَةُ عَلَى حُسْنِ الْخُلُقِ:

- تَذَكُّرُ الْآثَارِ الْمُتَرَتِّبَةِ عَلَى حُسْنِ الْخُلُقِ عَلَى الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ، وَاسْتِحْضَارُ حُسْنِ عَوَاقِبِهَا.
- **قِلَّةُ الْمُشْكِلَاتِ**: تُسْهِمُ الْأَخْلَاقُ فِي قُوَّةِ الْبِنْيَةِ الدَّاخِلِيَّةِ لِلْمُجْتَمَعِ، وَالْحَدِّ مِنْ حُدُوثِ الْمَشَاكِلِ دَاخِلَ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ، مِنْ مَشَاكِلَ أُسَرِيَّةٍ، وَمُجْتَمَعِيَّةٍ كَالْجَرَائِمِ؛ لِأَنَّهَا بِمَثَابَةِ رَادِعٍ لِلْإِنْسَانِ، وَهِيَ اللَّبِنَةُ الْأَسَاسِيَّةُ الَّتِي تَرْتَكِزُ عَلَيْهَا الْمُثُلُ الْعُلْيَا لِلْوُصُولِ إِلَى الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ الَّذِي تَنْشُدُهُ الْمُجْتَمَعَاتُ.
- **انْتِشَارُ الْمَحَبَّةِ وَالْوِئَامِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ**، وَتَحْقِيقُ مَبْدَأِ الْأُخُوَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ؛ عَمَلًا بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وَقَوْلِ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ-: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي

تَـوَادِّهِمْ وتَـرَاحُمِهِمْ وتَعَـاطُفِهِمْ، مَثَلُ الجَسَـدِ إذا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَـدَاعَى لـه سَـائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى» [متفق عليه، من حديث النعمان بن بشير – رضي الله عنه –].

• **زِيَادَةُ الْكَفَـاءَةِ فِي الْعَمَـلِ**: لأَنَّ الأَخْـلاَقَ الْحَسَـنَةَ تُـوَفِّرُ الْجَـوَّ الْمُنَاسِـبَ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ كُلِّ الْعَادَاتِ السَّيِّئَةِ الَّتِي تَمْنَعُ تَطَوُّرَ الْعَمَلِ، فَتَمْنَعُ صَاحِبَهَا عَنِ الرَّشْوَةِ وَالْكَذِبِ وَالتَّزْوِيرِ، وَتَزِيدُ مِنَ الإِنْتَاجِيَّةِ، وَتَدْعُو إِلَى إِتْقَانِ الْعَمَلِ؛ لأَنَّ كُلَّ هَذَا يُعَدُّ مِنَ الأَخْلاَقِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي تُحَتِّمُ عَلَى صَاحِبِهَا الاِلْتِزَامَ بِتَطْبِيقِهَا.

• **بِنَـاءُ رَوَابِـطِ الثِّقَـةِ وَالأَمَـانِ فِي الْمُجْتَمَـعِ**: الأَخْـلاَقُ الْحَسَنَةُ تُشْعِرُ الأَفْـرَادَ وَالْمُجْتَمَعَاتِ بِالأَمْنِ؛ فَيَسْتَأْمِنُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَمْوَالِهِ وَأَمْلاَكِهِ وَأَرَاضِيهِ، وَيَشْعُرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ بِالثِّقَةِ بِكُلِّ مَنْ حَوْلَهُ؛ فَيَأْمَنُ غَدْرَهُمْ وَمَكْرَهُمْ؛ لأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الأَخْلاَقَ تَمْنَعُ الْغَدْرَ وَالْخِيَانَةَ وَالظُّلْمَ، فَيَشْعُرُ الْفَرْدُ الَّذِي يَعِيشُ فِي مُجْتَمَعٍ مُسَلَّحٍ بِالأَخْلاَقِ أَنَّ حَيَاتَهُ آمِنَةٌ، وَلَيْسَ فِيهَا مَا يَدْعُو لِلْخَوْفِ، مَا دَامَ يَنْتَمِي لْمُجْتَمَعٍ تَسُودُهُ الأَخْلاَقُ.

• **الْحُصُـولُ عَلَـى احْـتِرَامِ الْمُجْتَمَعَـاتِ الأُخْرَى**: لأَنَّـهُ مُجْتَمَـعٌ لاَ يَصْـدُرُ مِنْـهُ الأَذَى وَلاَ الضَّـرَرُ، وَلاَ يُـرَبِّي أَشْخَاصًـا يُسَـبِّبُونَ الأَذَى وَالظُّلْـمَ لِغَـيْرِهِمْ، فَيَحْتَرِمُـهُ الْجَمِيعُ، وَيَلْقَى مَكَانَةً مَرْمُوقَةً بَيْنَ الْمُجْتَمَعَاتِ.

اللَّهُـمَّ ارْزُقْنَـا حُسْـنَ الْخُلُقِ، وَطَهَـارَةَ النَّفْسِ، وَحَـلاَوَةَ اللِّسَـانِ، وَسَـعَةَ الصَّـدْرِ، وَطَلاَقَةَ الْوَجْهِ، وَسَلاَمَةَ الْقَلْبِ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

جمعه

الفقير إلى عفو الله ومغفرته

محمد بن سليمان المهوس

الدمام ٢٨ / ١٢ / ١٤٤٢ هـ